سُوسيوثقافية الشَخصيّة في الخطاب الروائي لدى فيدور ديستويفسكي

«الإخوة كرامازوف» أنموذجا

ط. د: مودّع عفاف

إشراف: أ. د: حميد علاوي

المؤسّسة: جامعة الجزائر2

الرتبة: أستاذ مساعد قسم (ب)

المؤسّسة: جامعة بسكرة

البريد الالكتروني: afaf.mouada@univ-biskra.d

المحور الثاني:

ثانيا. نسقية الشَخصية في مروية « الإخوة كارامازوف» لفيدور دوستويفسكي .

انصب اهتمام دوستويفسكي بوصفه إنسانا وكاتبا، منذ بداية نشاطه الأدبي وحتى نهاية حياته على القضايا الرئيسة للحياة الاجتماعية في عصره، بتفاصيلها اليوميّة ، خاصة وأنّه اعتبر الواقع المعاصر له، عصر أزمة وتحوّل في حياة روسيا وأوروبا، عصرا يشكل نهاية مرحلة ومقدّمة لمرحلة أخرى جديدة من التطور التاريخي الاجتماعي والثقافي (المؤلفين، 2012)

فقد ولد فيودور دوستويفسكي يوم 11 نوفمبر (تشرين الثاني) عام 1821 بموسكو، وهو الابن الثاني لوالديه. وترعرع بحي فقير على طرف موسكو في منزل العائلة قرب مستشفى ماريانسكي للفقراء، الأمر الذي سنح له بمشاهدة حال المرضى الأليم أثناء لعبه في ريعان طفولته. اطّلع دوستويفسكي على الأدب منذ صغره. من في الثالثة من عمره، كملاحم البطولة والحكايات والأساطير الخرافية، كُلّ هذا كان عبرَ مُربيتِه **ألينا فرولوفنا** التي كان لها أعمق الأثر عليه وعندما بلغ الرابعة، قامت أمّه بتدريسه الكتاب المقدس ليتعلم من خلاله القراءة والكتابة. وقد عرّفه والداه بمختلف أنواع الأدب، من ضمنهم الأدباء الروس مثل **كرامزين وبوشكين**. إن دخول دوستويفسكي السجن مع الأعمال الشاقة في سيبيريا لمدة أربع سنوات (وهذا بعد أن نجى من عقوبة الإعدام بالرصاص) ربما كانت كفيلة لأن يخرج لنا هذا

الكم من البؤس والمعاناة في مؤلفاته، حيث تركت أثرًا عميقًا عليه، تخلّى بموجبها عن أفكاره الراديكالية، ليصبح أكثر تقبلًا واحترامًا للأفكار الدينية (قراءة في رواية الإخوة كارامازوف لدوستويفسكي، 2023/10/16)

يعدّ فيدور الأخ الثاني من بين سبعة أبناء لطبيبٍ جراحٍ سريعِ الانفعال، مستبدّ، معاقر للخمر باستمرار، تعرَضّ لنوبات صرع بدأت حين كان في التاسعة من عمره لتصيبه بعد ذلك في فترات متفرقة من حياته، وعند بلوغه الخامسة عشر من عمره توفيت والدته في الوقت نفسه الذي قرر فيه ترك الدراسة والالتحاق بمعهد الهندسة العسكرية ليتخرج بعد ذلك ويعمل مهندسًا ويحيا حياة مترفة نتيجة عمله بترجمة الكتب كدخل إضافي له (السلمان، 2023/10/16).

يستهل ديستويفسكي روايتة الإخوة كرامازوف بسؤال جوهري «ما اللافت في أليكسي كرامازوف حتى أجعله بطلًا لقصتي؟ ماذا استطاع إنجازه؟ ما الذي اشتهر به؟ لماذا على القارئ أن يصرفَ وقتًا لمعرفةِ وقائع حياته؟»، وهو ما ينمّ على ذكائه وحنكته الفنيّة التي سهّلت من مهمّة جذب القارئ، الذي وجد نفسه يبحث عن مصير بطل الرواية عبر صفحاتها وعبر الأحداث المتعاقبة دون بقية شخصيات الرواية على الرغم من دورهم المهم؛ إذ تدور أحداث الرواية في أجزائها الأربعة حول عائلة مشتتة، عائلة فيودور كرامازوف الأب غير المسؤول والانتهازي (سارق لميراث أبنائه)، والأبناء: الأول من الزوجة الأولى ديمتري كرامازوف، والابنين الآخرين: إيفان، وأليكسي ويطلق عليه أليوشا كرامازوف، من الزوجة الثانية، والابن غير الشرعي سميردياكوف ابن متشردة مجنونة. يكبر الابن الأكبر ديميتري أو ميتيا حتى يصبح عربيد يحب المال والنساء والفجور تمامًا كوالده فيعود إلى أبيه ويطالبه بميراثه بعد أن تم طرده من العسكرية لكن الأب يرفض وبكل حيلة وخساسة منحه شيء من ميراثه وتتعقد الأمور حين يقرر الابن قتل والده إن منعه من المال ويزيد دوستويفسكي في حبك الرواية ويضيف تفصيلًا أو حدثًا آخر، وهو وقوع الابن والأب في حب نفس المرأة اللاّهية العابثة بهما معًا من أجل المال، لتتطور أحداث الرواية وتصل إلى ذروة التشويق بقيام ديمتري بمحاولة قتل والدهِ، لكنه يتراجع في آخر لحظة ويهرب متسللًا عبر سور الحديقة، ويسرع إلى اللحاق بمحبوبته غروشينكا التي فضلت حبيبها السابق عليه، وبينما هو لاهٍ في تحت تأثير الخمر وموسيقى الجوق حتى يظهر ضابط الشرطة والمفتش أمامه لاتهامه بقتلِ ابيهِ واقتيادهِ للسجن (قراءة في رواية الإخوة كارامازوف لدوستويفسكي، 2023/10/16).

1. نسقية الخطاب النفسي.

وهو في كل هذا يجول بنا عبر مكنونات شخصياته وطريقه تفكيرهم، الأمر الذي جعل فرويد يقرّ بأنه تعلم التحليل النفسي من أعمال هذا الأديب الكبير، دوستويفسكي، ومن خلال تلك الاعمال الروائية العظيمة، والأمر سيان بالنسبة الألماني نيتشة (السلمان، 2023/10/16)

يظهر جَليًا من خلال أحداث الرواية ما يخالج نفس دوستويفسكي من قلق ينبئ عن مشكلات فلسفية ومسائل إنسانية تحيط بفكره، فتراه ساعة ملحدًا لا يؤمن بوجود الله، وأحيانًا في قمة الإيمان والرهبنة، الأمر الذي التمسناه من خلال الحوارات التي جاءت على لسان أبطال الرواية خاصة في حوارات إيفان في بداية الرواية عن علاقة الدولة والدين (وفي حواره مع الشيطان خاصة)، أليكسي في حواره مع الراهب زوسيما، وأيضًا حوار سميردياكوف وإيفان، كما يظهر من خلال أحاديث الشيخ زوسيما مع مريديه في ليلة موته، الأفكار التي ينادي بها في اعتقاد دوستويفسكي من حب الإنسانية والعدل والمساواة بين السيد والخادم ونبذ العنف والشر، وحديث عن المحبة والصلاة التي تصل الروح بربّها ليباركها ويزّكيها، كما يتخلل هذه الروحانية تأمّلا صوفيا يكمن في كون نار جهنم ليست مادية، ولو كانت كذلك فإنها تتيح للمعذب أن ينسى العذاب الروحي الرهيب، حتى شخصية ديمتري ميتيا المتهم بقتل والده يكشف عن شخصية نبيلة محبة ومضحية أيضًا، وهذا ما جعل البعض من المجتمع يتعاطف معه أثناء المحاكمة (قراءة في رواية الإخوة كارامازوف لدوستويفسكي، 2023/10/16)

يجول دوستويفسكي في روايته عبر أحداثها متقمّصا كل شخصية بمواصفاتها الظاهرة، بأطوارها، أفكارها وأحاسيسها، وهو ما يحيل إلى تحرّره من الأحكام المسبقة في تعصّبها ، بل كأنه متطلع وفاهم لكل هذه الأفكار ومتسامح معها، بالإضافة إلى ذلك نجد دوستويفسكي الفيلسوف، الراهب، الملحد، الطفل، العاشق، المحامي والقاضي كله في شخص روائي خارق. وما عضّد ذلك النهاية المفتوحة للرواية، فلم نعلم هل نجح ميتيا في الفرار من السجن والذهاب مع حبيبته إلى أمريكا كما خطط له، وماذا عن بقية أبطال الرواية! تركنا دوستويفسكي للغموض. كما أنّ دور البطل الرئيسي ألكسي أو أليوشا كما أسماه دوستويفسكي اقتصر على النجاة من صفات أو الجينات الوراثية لعائلة كارامازوف المشهورة بالعبث، وحب المال، والنساء. وهو ما جعل من هذا العمل الإبداعي ملحمةً، ولخص فيها ما

جال في خواطره وفي مجال سبر غور النفس البشرية حيث يظهر البؤس والفرح الخير والشر الجريمة والعقاب والتعاطف مع الجاني الإيمان والإلحاد وحوار مع الشيطان كل ذلك عند فيودور دوستويفسكي (قراءة في رواية الإخوة كارامازوف لدوستويفسكي، 2023/10/16)

ولعلّ هذا ما دفع بباختين إلى اعتبار أنّ بداية النقد الواعي لأعمال دوستويفسكي إلى **جيسلاف إيفانوف Gislav Ivanov** حينما ربط إبداع دوستوفسكي بالأبطال الذين يسعون إلى تأكيد وعيهم وتقديمه بوصفه وعيا يخصّهم ولا يخص مؤلفهم، وهو ما يسمى بالنزعة الإنفصالية في الوعي، تبرز في شكل مجموعة من الأفكار المتناقضة في النص، والتي لا تلتقي في مفهوم يؤلّف فيما بينها شأن السرود القديمة (لعداسي، الثلاثي الأوّل 2022م).

2. نسقية الخطاب (التاريخي - الاجتماعي).

يحتوي تاريخ الأدب على لحظات متباينة من حيث الفاعلية النصية، ومن حيث وقع التلقي. باعتبار جدلية المعيار والانزياح. تمثّل هذه الثنائية مشاهد التحوّل المستمر، وتبادل المواقع بين النماذج، فما كان انزياحا يصبح بحكم الاستعمال المتكرّر معيارا، والعكس صحيح. ولهذا كانت أطروحات ميشال فوكو حول التاريخ تقوم على مقولة الانفصال والتباين بدل مقولة الاتصال التي تتبناها الفلسفة التقليدية للتاريخ، ولا غرو أن ينظر ياوس إلى تاريخ الأدب على أنّه تاريخ المتلقي. وبما أنّ عملية التلقي مستويات متباينة بحكم الأبعاد السوسيوثقافية لنظرية الأدب، كان تاريخ الأدب خطابا متبدّدا، فهو خطاب منفصل أكثر مما يكون خطابا متصلا (يوسف، صفحة 176)

دخل دوستويفسكي الأدب العالمي ككاتب ذي مزاج تراجيدي خاص، ووسمت مؤلفاته بـ «روايات-مآسي»، إلاّ أنّها اختزلت مضمونا اجتماعيا ووعيا تاريخيا حملت عقيدة الكاتب وفهمه لجوهر الحياة الروسية، من خلال المواضيع المنتقاة التي عالجها دوستويفسكي، وفي شخصيات أبطاله الرئيسيين وأشخاصه، الذين لا يشبهون أبطال وأشخاص الكتاب الروس الآخرين. إنّ التناقضات التراجيدية الموضوعية، التي ولدتها ظروف الواقع الروسي السياسية والاجتماعية في القرن التاسع عشر، هي مصدر آلام أبطال دوستويفسكي، الأخلاقية ومعاناتهم الروحية (المؤلفين، 2012) ، ليخلّد بذلك وجودا اجتماعيا في تفرّده وتميّزه عمن سواه.

3. نسقية الخطاب الإنساني.

إذا اعتبرت الفلسفة الوجودية الانسان قيمة عليا، ومن ثمّة اتخذت من هذه القيمة معايير اعتبارية، تحاول من خلالها، رفع شأن الانسان، وجعله في قمة الهرم الذي يُبنى عليه كل شيء إنساني يليق به ككيان فاعل في الوجود، فإنّ دوستويفسكي، أفاض، من خلال جُل اعماله الأدبية على الوجود كونه اعطى قيمة حقيقية للإنسان، بل ورفع من شأنه، ففي حديثه عن الانسان، يقول دوستويفسكي: «أما الانسان فهو مخلوق طائش متناقض وربما شابه لاعب الشطرنج الذي يهوى اللعبة في حد ذاتها لا نتيجتها. ومن يدري (فليس ثمة قول مؤكد) وربما كان هدف الجنس البشري الوحيد في الوجود ينحصر في ذلك السعي المتواصل لتحقيقه، أو بعبارة أخرى ينحصر في الحياة نفسها لا في الهدف الذي يجب تحقيقه وهو ما يجب التعبير عنه دائمًا بأنه قانون حتمي كاثنين مضاعفة تساوي أربعة ومثل هذه الحتمية.. ليست هي الحياة ولكنها بداية الموت» (السلمان، 2023/10/16)

والحال هذه، يجزم دوستويفسكي بأن جهل الإنسان هو الذي يدعه أن يرتكب الحماقات ومن الأشياء التي من العقل والمنطق أن لا يرتكبها، ولا ينفك منه إلا بفضيلة العلم والمعرفة، كي يتيقن بأن تلك الافعال هي غير صحيحة وأن مرتكبها غير سليم العقل (السلمان، 2023/10/16).

عكس عالم دوستويفسكي الفني الصراع بين الفكر والبحث والتأمّلات المتوتّرة وبين الظروف الاجتماعية في عصر المدنية البورجوازية، التي تفرّق بين الناس وتولّد الشر في نفوسهم، وتنشط وعيهم - حسب تشخيص دوستوفسكي لها- هي ذاتها تدفع أبطاله إلى طريق المقاومة، وتوّلد فيهم الطموح إلى تفهّم تناقضات عصرهم من جميع الجوانب، وليس هذا فحسب، بل وحتى إلى إدراك حصيلة وآفاق تاريخ البشرية كلّه، وتوقظ عقولهم وضمائرهم؛ فأبطاله مارميلادوف، وراسكولنيكوف، وميشيكين، وليبيديف، وفيدور كارامازوف، وإيفان كارامازوف –يشعرون، كل على طريقته الخاصة،- بـ "تشوههم" الخاص، وبـ "تشوّه" المجتمع المحيط بهم وهم جميعا، على الرغم من أنّهم يتمتعون بالوعي ويتحلون بالضمير ، وإن اختلفت النسب فيما بينهم، كلّ على طريقته الخاصة وبحسب خبرته الحياتية العملية والنظرية، ليلقي بذلك الأضواء على المسائل الرئيسة "المريضة" في حياة الإنسانية وماضيها ومستقبلها من جوانب مختلفة. ومن هنا تأتي تلك النزعة العقلانية الحادة في روايات دوستويفسكي، وتشعبها بالفكر الفلسفي الثاقب، الذي لا يهدأ وهاتان الخاصتان قريبتان جدا من أناس عصرنا، وتمتان بصلة القربي إلى أفضل نماذج الأدب في القرن العشرين (المؤلفين، 2012)

ومهماّ يكن من أمر، يقول دوستوفسكي ملخّصا آراءه الفلسفية والإبداعية: «إنّ الحاجة إلى الجمال والإبداع المجسّد له ترتبط دائما بالإنسان، وبدون الجمال يفقد الإنسان رغبته في الحياة والإنسان

ظامئ إلى الجمال، وهو يجده ويتقبله دون شورط، وينحني الإنسان أمام الجمال باحترام وتبجيل، لأنّه جمال فقط، ولا يسأل الإنسان عن فائدته أو عن قيميته المادية، وقد يعود سر الإبداع الأدبي العظيم إلى أنّ صورة الجمال التي يرسمها الإبداع الأدبي تغدو في الحال معبودة ومقدّسة دون قيد أو شرط ولماذا تغدو صورة الجمال معبودة ومقدّسة؟ لأنّ الحاجة إلى الجمال تتطوّر تطوّرا أكبر عندما يكون الإنسان منفصلا عن الواقع، وغير منسجم معه، وعندما يحتدم بينهما الصراع، أي عندما يعيش الإنسان فعلا، ذلك أنّ الإنسان يعيش فعلا، بالمعنى الكامل للكلمة، عندما يبحث عن شيء ويجده ،ويصل إليه، في هذه اللحظة بالذات تظهر لدى الإنسان رغبة شديدة للشعور بالانسجام والطمأنينة، والانسجام والطمأنينة موجودان في الجمال...إنّ الجمال هو صفة مميّزة لكل ما هو صحّي سليم معافى، أي كل ما هو حي، وهو حاجة ضرورية للكائن الإنساني، إنه هو الانسجام بعينه، وهو عربون الطمأنينة» (المؤلفين، 2012، صفحة الغلاف)

خاتمة:

إنّ من مميزّات الكتابة الروائية لدى دوستوفسكي دقّة رسم ملامح الشخصّيات المنتقاة من الناحية الجسدية والنفسيّة، وهو في كلّ هذا رام تخليدّ وجود إنسانيّ نحتت ملامحه تجارب قاسيّة فتفرّد بفلسفة لامست في عمقّها ذوات القرّاء على اختلاف الأزمنة والأمكنة ليكسبها طابع الإنسانية ومن ثمّة العالمية.

قائمة المراجع:

- مجموعة من المؤلفين .(2012) .دوستوفسكي (دراسات في أدبه وفكره) .ن .ع .السود ,دمشق-سورية :وزارة الثقافة.

المجلات والدوريات:

- أحمد يوسف. (بلا تاريخ). الأبعاد السوسيوثقافية لنظرية القراءة . مجلة عالم الفكر، صفحة 176
- لعداسي ,م .(الثلاثي الأوّل 2022م) .مقولتا النفوذ المعنوي والمداهمة في المنجز الباختيني – قراءة في كتاب شعرية دوستوفسكي .مجلة اللغة العربية ,لمجلّد 24. العدد.01

- السلمان ,د .(16/10/2023) .وجودية دوستويفسكي .ttps://sotkurdistan.net .
- قراءة في رواية الإخوة كارامازوف لدوستويفسكي .(16/10/2023) .

https://sasapost.co/opinion/read-in-the-novel-karamazov-dostoyevsky.